نشأة التفسير ومتطلبات التجديد

د/ محسن علي حسين طه

قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية، جامعة عدن

المقدمة:

نشأت الحاجة إلى التفسير بمجرد انقطاع الوحي نتيجة لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم حيث وجد المسلمون أنفسهم إزاء وضع جديد.

برزت أولى أحداثه -قبل أن يوارى جثمان النبي صلى الله عليه وسلم- في أحداث السقيفة التي كادت أن تعصف بكيان الجماعة الإسلامية. لأن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أحدثت فراغاً كبيراً في نفوس الجماعة الإسلامية المنضوية تحت لوائه.

وهذا يبدو أمراً طبيعياً- خارج التصور المثالي للتاريخ- لأن غياب القائد من شأنه أن يربك التوازن الذي كانت الجماعة تستمده من شخصيته صلى الله عليه وسلم المؤيدة بالوحي السماوي، سيما عند تعلق الأمر بشخصية استثنائية هي المرجع في كل شي. فانقطاع الوحي أحدث فراغاً تشريعياً جعل الجماعة الإسلامية مجبرة على التعامل مع مستجدات الواقع، و أن تستنبط حلولا للمستجدات بالاجتهاد وفق ما تراه متلائماً مع مقاصد الشريعة الإسلامية فيما لم يرد فيه نص.

فبانقطاع الوحي وجد المسلمون أنفسهم يتدرجون نحو وضع تأصيلي وتأويلي جديد، لم يعد فيه مجال للقول الفصل كما كان الحال في حياة الرسول صلى

الله عليه وسلم. وآل أمر البت في القضايا إلى كبار الصحابة وفقهائهم، ثم إلى التابعين ومن خلفهم من الفقهاء والمحدثين والمفسرين وأهل الكلام وذلك بترجيح معنى على آخر أو إثبات مشروعية حكم دون آخر كل حسب اجتهاده، وبذلك تحول معنى النص إلى نصوص.

في هذا السياق ينبغي فهم نشأة التفسير باعتباره نتيجة معقولة لوفاة الرسول وانقطاع الوحي بوفاته، ونتيجة لتطورات الواقع ومستجدات الحياة.

المبحث الأول:

التفسير في عصر الصحابة والتابعين:

مما لاشك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفهم القرآن جملة وتفصيلاً بعد أن تكفل الله بحفظه وبيانه "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) " القيامة وكان من الطبيعي أن يفهم الصحابة القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة ، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن ، لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما أشكل عليهم فهمه؛ وذلك لأن القرآن فيه المجمل والمشكل والمتشابه..، وغير ذلك مما لابد في معرفته من أمور أخرى يرجع إليها الدارس[1].

ولا أظن الحق مع ابن خلدون حيث يقول في مقدمته "إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"[2].

نعم لا أظن الحق معه في ذلك لأن نزول القرآن بلغت العرب لا يقتضي أن العرب كلهم كانوا يفهمونه في مفرداته وتراكيبه، لأن العرب يتفاوتون في فهم اللغة من حيث مفرداتها وتراكيبها وبلاغتها. والدليل على ذلك ما نشاهده اليوم

1. الذهبي التفسير والمفسرون 33/1 لم تذكر الطبعة ولا دار النشر
2. ابن خلدون: المقدمة ص489

من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها. وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها بل لابد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكون له- إضافة إلى اللغة- موهبة عقلية خاصة تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه.

ولو رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن؛ بل تفاوتت مراتبهم وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات' وأكثر من هذا أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات القرآنية، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة كما ذكرنا أنفا، ويشهد لما ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنس "أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر(وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبا؟. ثم رجع إلى نفسه فقال إن هذا لهو التكلف يا عمر"[3]

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: "كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها".[4]

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى الأب ويسأل عنه غيره، وابن عباس - و هو ترجمان القرآن- لا يظهر له معنى فاطر إلا بعد سماعها من غيره، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي للآية فيكفيهم- مثلاً أن يعلموا من قوله تعالى"وَفَاكِهَةً وَأَبًّا" أنه تعداد للنعم التي أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلاً مادام المراد واضحاً وجلياً. [5]

3. جلال الدين السيوطي الإتقان جـ2/113 مطبعة مصطفى الحلبي 1935م
4. جلال الدين السيوطي الإتقان: جـ2/113 مطبعة مصطفى الحلبي 1935م
5. جلال الدين السيوطي الإتقان: جـ2/113 مطبعة مصطفى الحلبي 1935م

وماذا يقول ابن خلدون فيما رواه البخاري، من أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى"وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ "البقرة:187وبلغ من أمره أن أخذ عقالا أبيض وعقالا أسود فلما كان بعض الليل، نظر إليهما فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بشأنه فعرض بقلة فهمه وأفهمه المراد.[6]

ويفهم مما تقدم أن الصحابة - رضوان الله عليهم- كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع -كما تقدم – إلى اختلافهم في الفهم، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الإطلاع فيها، ملماً بغريبها. ومنهم دون ذلك، ومنهم من كان يلازم النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء؛ بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافا كبيراً.

مصادر التفسير في هذا العصر

أما مصادر التفسير في هذا العصر فهي محصورة في أربعة مصادر:

المصدر الأول: القرآن الكريم:

والناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد أشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين ، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص. فما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما جاء مطلقا في موضع قد يلحقه التقييد في موضع آخر. وما كان عاما في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى.

لهذا كان لابد لمن يتصدى للتفسير أن ينظر في القرآن أولاً ، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض؛ ليستعين بما جاء مُسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مبينا على فهم ما جاء مجملاً، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص ، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن. وفهم مراد الله بما جاء عن الله. وهذه مرحلة لا يجوز للمفسر أن يعرض عنها، أو يتخطاها إلى غيرها، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه. ومن تفسير

6. البخاري باب التفسير من فتح الباري: 127/8 ابن حجر العسقلاني فتح الباري:ط الخيرية:1319هـ

القرآن بالقرآن حمل بعض القراءات على غيرها، فبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ وتتفق في المعنى، وبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ والمعنى، وبعض القراءات تعين المراد من القراءة الأخرى. وتختلف بعض القراءات بالزيادة والنقصان، وتكون الزيادة في إحدى القراءتين مفسرة للمجمل في القراءة التي لا زيادة فيها.

و مما يؤيد أن القراءات مرجع مهم في التفسير ما روي عن مجاهد أنه قال: " لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجت أن أسأله كثيراً مما سألته"[7]

هذا هو تفسير القرآن بالقرآن، وهو ما كان يرجع إليه الصحابة في تعرف بعض معاني القرآن.

المصدر الثاني للتفسير: الحديث والسنة

أما المصدر الثاني للتفسير الذي كان يرجع إليه الصحابة في تفسيرهم للقرآن، فهو النبي صلى الله عليه وسلم، فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله، رجع إليه في تفسيرها فيبين له ما خفي عليه، لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه حيث قال:" وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "النحل:44). والذي يرجع إلى كتب السنة يجد أنها قد أفردت للتفسير باباً من الأبواب التي اشتملت عليها، ذكرت فيه كثيراً من التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم، غير أن القصاص والوضاع زادوا في هذا النوع من التفسير كثيراً.

ولهذا رد العلماء كثيراً مما ورد من التفسير منسوبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نقل عن الإمام أحمد أنه قال:" ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي" ولكن هذا الكلام لا يحمل على إطلاقه كما يرى المحققون من أتباعه، أن الغالب ليس له أسانيد صحاح متصلة.[8]

7. على حسن عبد القادر: نظرة عامة في تاريخ التشريع 163/11 1942 ولم تذكر دار النشر والطبعة.
8. جلال الدين السيوطي الإتقان: جـ2/ 178 مطبعة مصطفى الحلبي 1935م

المصدر الثالث: الاجتهاد:

أما المصدر الثالث من مصادر التفسير في عصر الصحابة فهو الاجتهاد وقوة الاستنباط؛ حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر ضرورة لأنهم عرب خلص يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي فهو ديوان العرب، كما يقول عمر رضي الله عنه.

أما أدوات الاجتهاد عند الصحابة فهي:

1. معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها .
2. معرفة عادات العرب وأعرافهم .
3. معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن .
4. قوة الفهم وسعة الإدراك .

المصدر الرابع: أهل الكتاب

أما المصدر الرابع من مصادر التفسير في هذا العصر فهو أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة والإنجيل في بعض المسائل، وبالأخص في قصص الأنبياء وما يتعلق بالأمم الغابرة، غير أن منهج القرآن يخالف منهج التوراة والإنجيل، فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل، ولم يستوف القصة من جميع جوانبها، وإنما يقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط.

ولما كانت العقول دائماً تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء، جعل بعض الصحابة يرجعون في استيفاء هذه القصص التي لم يتعرض لها القرآن من جميع نواحيها إلى من دخل الإسلام من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهم، وهذا بالنسبة إلى ما ليس عندهم فيه شي عن رسول الله؛ لأنه

لو ثبت شي في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه.[9]

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب، لم يكن له من الأهمية في التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة، وإنما كان مصدراً ضيقاً محدوداً وذلك لما وقع في الكتب السابقة من التحريف والتبديل. وكانوا لا يأخذون عن أهل الكتاب إلا ما يتفق مع عقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن الكريم.

تميز التفسير في هذه المرحلة

و تميز التفسير في هذه المرحلة بالميزات الآتية:

1- لم يفسر القرآن جميعه ، وإنما فسر بعض منه، وهو ما غمض فهمه غير أن هذا الغموض كان يزداد كلما بعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، فكان التفسير يتزايد تبعا لتزايد هذا الغموض إلى أن تم تفسير آيات القرآن جميعها.

2- قلة الاختلاف بينهم في فهم معانيه،و سأتعرض لهذا الموضوع بتوسع فيما بعد إن شاء الله تعالى.

3- كانوا كثيرا ما يكتفون بالمعنى الإجمالي، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلا.

4- الاقتصار على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ.

5- ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله: نضرا لاتحادهم في العقيدة، ولأن الاختلاف المذهبي لم يظهر إلا بعد عصر الصحابة.

6- لم يدون شيء من التفسير في هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني.

7- اتخذ تفسير القرآن في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءاً منه وفرعا من فروعه.

---

9. التفسير والمفسرون 1/61-62.

المرحلة الثانية للتفسير:

وبدأت المرحلة الثانية للتفسير بانصرام عهد الصحابة، فقد تتلمذ علماء التابعين على أيدي الصحابة وأخذوا عنهم علوم التفسير والحديث، كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم في استجلاء بعض ما خفي من كتاب الله، أشتهر أيضا بالتفسير بعض أعلام التابعين تكلموا في التفسير، ووضحوا لمعاصريهم ما خفي من معاني القرآن.

مصادر التفسير في عصر التابعين:

أما مصادر التفسير في عصر التابعين فهي مصادره في عصر الصحابة بالإضافة إلى ما فتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

اختلاف العلماء في التفسير بالمأثور

وقد اختلف العلماء في قيمة التفسير المأثور عن التابعين فمنهم من يرى عدم الأخذ بأقوالهم. واستدل أصحاب هذا الرأي أن التابعين ليس لهم سماع من الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يمكن الحمل عليه كما الحال في تفسير الصحابة[10].

قال الذهبي:" والذي تميل إليه النفس ويطمئن إليه القلب". هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة. فإن ارتبنا فيه، بأن اشتهر بالأخذ عن أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع التابعون على رأي فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.[11]

قال ابن تيمية: قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة ، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشي فلا يرتاب في كونه حجة، فإن

10. التفسير والمفسرون:128/1

11. التفسير والمفسرون:128/1-129

اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب وأقوال الصحابة في ذلك[12].

مميزات التفسير في عهد التابعين

يمتاز التفسير في عصر التابعين بالمميزات الآتية:

1- دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات وذلك لكثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب.[13]

2- ظل التفسير في هذه المرحلة محتفظا بطابع التلقي والرواية إلا أنه لم يكن تلقيا بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ بل كان تلقيا ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص، فأهل كل مصر يعنون بالتلقي والرواية عن إمام مصرهم.

3- ظهور نواة الخلاف المذهبي في هذا العصر.

4- كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان عليه في عصر الصحابة، وإن كان خلاف تنوع وليس خلاف تضاد وإذا تتبعنا ما نقل عن السلف من أقوال في التفسير، وجمعنا ما هو مبثوث في كتب التفسير بالمأثور لخرجنا بادي الرأي بكثير من الأقوال المختلفة في المسألة الواحدة، فقول الصحابي يخالف قول صحابي آخر، وقول التابعي يخالف قول تابعي آخر، بل كثيراً ما نجد قولين مختلفين في المسألة الواحدة، وكلاهما منسوب لقائل واحد، فهل معنى هذا أن الخلافات في التفسير قد اتسعت دائرته في عصر الصحابة والتابعين؟ وهل معنى هذا ؟أن الصحابي أو التابعي يناقض نفسه في المسألة الواحدة؟.. والجواب على ذلك بلا. فدائرة الخلاف لم تتسع، ولم يناقض الصحابي والتابعي نفسه، ذلك لأن غالب ما صح عنهم من الخلاف في التفسير يرجع إلى اختلاف عبارة مثلا، أو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد كما سبق أن ذكرنا.

12. ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص 26 مطبعة الترقي بدمشق

13. أحمد أمين: فجر الإسلام ص 252 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: 1935 ومنهج الفرقان لمحمد أبو سلامة: مطبعة شبرا 1938

ولكن هذا الاختلاف في العبارة والتنوع كان بذرة أساسية لاختلاف التضاد والتباين في العصور المتأخرة. كما أدى هذا الواقع إلى استحواذ المفسر على سلطة المعنى حتى أصبح ما يقوله المفسر عن النص مما هيئ للنص ذاته، وكأن المفسر صار خليفة للنبي وانفرد المفسر عن غيره بملكية جعله سلطة في أذهان القراء، فأحاطوا خطابة بهالة من الاحترام، إن لم يكن من التقديس، حتى أصبح التعامل معه - عملياً- لا يختلف، بل مساوياً لكلام الله والمتتبع لتطوّر خطابات التفسير عموماً، وما استقر في أذهان المسلمين بالإطلاع على فلك التفسير - مفصلة أو مجملة- يُلاحظ بيسر أن النص القرآني أصبح يقرأ بواسطة المفسر، وهي وساطة ملزمة بشكل أو بآخر، ولعل هذا ما يسمح بالحديث عن تشكل مؤسسة تأويلية، وإن لم يكن لها دور رسمي معلن، فقد كانت موظفة دائماً لدى السلطة القائمة لتدافع عن تفسير دون آخر، أو تثبت معنى على حساب معاني أخر حسبما تقتضيه الخيارات المذهبية والإكراهات الأيديولوجية. والحقيقة أن التفاسير على كثرتها - قديماً - كانت وتبقى دائماً موسومة بالتقصير في بيان معاني القرآن - لأن مسلّمة كبرى ترسخت في أذهان المفسرين مفادها أن ثمة فارقاً نوعياً بين القرآن وما يكتب عنه، بين كلام الله وكلام البشر، وأن المفسر الراسخ مهما بذل من جهد لن يحيط بأسرار القرآن، حتى أصبحت كلمة "الله أعلم" بمثابة الأزمة في جل التفاسير بعد أن يورد المفسر تأويلات كثيرة للآية الواحدة، وحتى يقدم ترجيحه لواحد منها.[14]

وفي القرآن نفسه آيات تؤكد هذه المسلمة، أو على الأقل فهمت منذ العصر الإسلامي الأول على أنها كذلك منها قوله تعالى"وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)"لقمان (27) وقوله تعالى" قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) " الكهف:

14. إشكالية تاريخية التفسير ومتطلبات الحداثة: الأستاذ حسن مزيو ص 18 الحضارة والتحديث في الحضارة الإسلامية: أعمال الندوات العلمية التي التأمت بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية بتونس العام الجامعي 2003-2004 م

هكذا اكتسى النص القرآني في وعي العلماء خاصة صفة النص المفتوح على تأويلات شتى.

إن مجرد الإقدام على التفسير مع الإقرار بلا نهايته في التعامل مع النص القرآني يعتبر في حد ذاته خطوة إيجابية، لأن بعض علماء التفسير رفضوا الخوض في معاني الآيات، وأحجموا عن التفسير، إجلالاً للقرآن وخوفاً من الوقوع في الخطأ ولعل أولهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين سُئل عن الفاكهة والأب من سورة "عبس" فقال: "أي سماء تظلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم"[15].

إذن ثمة مفارقة بقيت ملازمة لوعي المفسر في علاقته بالقرآن أمام انفتاح النص القرآني على معاني كثيرة، ومختلفة من جهة، وتحول القول الفصل في شأن المعنى إلى المفسر نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى.

وإذا كان المسلمون لم يشعروا بالحاجة إلى التفسير بالمعنى المتعارف عليه للمصطلح خلال فترة النبوة؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وهم أرباب الفصاحة والبيان[16] فإن الحاجة إلى التفسير تنامت باطراد مع تطور المجتمع الإسلامي لاعتبارات تشريعية وعقائدية ومعرفية ومذهبية، فكثرت التفاسير، واختلفت توجهاتها وتلوّن طابعها باختلاف ثقافة المفسرين وتباين توجهاتهم المذهبية والفكرية، وتمايُز الفترات التاريخية التي عاشوا خلالها، وهذا ما يجعلنا نؤكد على ضرورة الوعي بتاريخ الخطاب التفسيري. ليس للتمييز بين التفاسير القديمة والحديثة فقط، بل أيضا لإدراك الفوارق بين عناصر المجموعة الأولى نفسها، وهو ما يقتضي فهم التاريخ على مستويين، مستوى خطي أفقي ينبه مثلا إلى الفوارق بين تفسير "جامع البيان" في تفسير "القرآن" لابن جرير الطبري (ت.31هـ) ومفاتيح الغيب للرازي (ت 606هـ)، ومستوى عمودي ينزّل خطاب التفسير في الواقع بما يقتضيه من تدافع بين الناس، وصراع على مصالح غير معلنة، أي أنه لا ينظر إلى عمل التفسير بوصفه مجرد استجابة لرغبة خاصة، أو انعكاساً بسيطا لنوع من الترف الفكري.

15. ابن كثير: 4/

16. ابن خلدون: المقدمة ص: 438. دار إحياء التراث العربي بيروت ط الثالثة

وحسبنا الإشارة إلى مصادرة بعض السلطات العربية " لتفسير الجواهر" لطنطاوي جوهري[17]. بل أن انتشار تفسير قرآني ما على حساب تفاسير أخرى هو في حد ذاته علامة دالة على مسار الصراع الإيديولوجي في لحظة تاريخية مخصوصة، والأمثلة على صلة خطاب التفسير بالواقع أكثر من أن تحصى، وهو ما أدّى إلى تعقب المفسرين بعضهم للبعض الآخر، مثل ما فعل ابن القيم الجوزية وابن المنير في هجومهما السافر على الزمخشري المعتزلي صاحب " تفسير الكشاف".

ويلاحظ الدارس أن إشكالية التفسير ليست تاريخية فقط عن موقف عقائدي أقر من البداية بلا محدودية النص القرآني، بل ناتجة أيضا إلى أن صيرورة الصراع هي من مقتضيات تاريخ الواقع العربي الإسلامي في تطوره، وليس ما يلاحظ بين مجموعة التفاسير التقليدية، والتفاسير الحديثة من جهة وما أشرنا إليه من التنوع والاختلاف ضمن عناصر الثانية من جهة أخرى إلا نتيجة منطقية للتفاعل بين مبدأ الانفتاح وقانون التاريخ.

ومادمنا نتحدث عن تاريخ التفسير لابد لنا من الإشارة إلى ظاهرة أخرى، وهي ظاهرة التقادم، لأنها ساهمت فيما نعتقد بدور ضالع في تعقيد إشكالية التفسير ذلك أن زيادة المسافة الزمنية بين نشأة النص، أي فترة نزول الوحي وزمن المفسرين في العصر الحديث مما عمق هوّة الاختلاف في فهم آيات القرآن.

فكلما تقادم النص القرآني تضاءلت إمكانات التمثل المطابق لمضامينه، لأن من شروط التمثل استرجاع معطيات السياق التي يسميها علماء التفسير " أسباب النزول " ويسميها البعض الأخر مناسبات النزول- وما لجُوء المفسرين المتأخرين إلى الاستعانة بأسباب النزول إلا سعي للاقتراب من زمن الوحي الذي ولّى ولن يعود. وإذا كانت هذه الظاهرة – ظاهرة تضاؤل إمكانات التمثل المطابق لمضامين النص كلما تقادم – تنسحب على كل النصوص، فالأمر بالنسبة للقرآن يبدو أكثر صعوبة؛ لأنه نص مختلف عن كل النصوص التي سبقته، أو التي لحقته، فهو متميز بذوق أسلوبي خاص ارتفعت به عن مستوى

17. التراث والتحديث في الحضارة الإسلامية اليوم: أعمال الندوات التي التأمت بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية بتونس السنة الجامعية 2003-2004م ص 20

النثر والشعر، فلا هو نثر على ما تعارف عليه أصول النثر، ولا هو شعر على ما تحتمه ضرورات الشعر؛ بل فن خاص قائم بذاته سمي بالقرآن ولذلك قال بعض علماء اللغة في تعريفهم اللغة العربية " اللغة العربية شعر ونثر وقرآن" فهو قرآن وكفى. فيه ما فيه من أساليب البلاغة والبيان كالتقديم والتأخير والتشبيه والاستعارة والكناية والتورية، ومختلف أنواع المجاز بالإضافة إلى فواتح السور الأحرفية مما اعتبر شهادة دامغة على الإعجاز[18] وكان لابد على المفسرين من النهوض بمسئولية الدفاع عن تفرد القرآن وتنزيهه عن الخطأ أو التناقض أو الإسفاف مما يندرج ضمن مطاعن خصوم الإسلام.

وكلما تقدم الزمن وتفاقم الصراع المذهبي أصبح إتقان علوم القرآن شرطا أساسيا لكل من يتصدى لتفسير القرآن الكريم حتى يكون المفسّر ملما بكل القضايا السالفة الذكر.

ومن أهم العوامل التي عرقلت ومازالت تعرقل خطاب التفسير هيمنة الاتجاه النقلي للتفسير على إرهاصات الاتجاه العقلي فسيطر التفسير بالمأثور على التفسير بالرأي، فلا يخل أي كتاب من كتب التفسير بالرأي من الآثار النقلية حتى وإن كانت ضعيفة، وذلك نتيجة الهيمنة الفعلية للمذهب السني على المذاهب الأخرى مما جعل الساحة التي يتحرك داخلها المفسر مسوّرة بسياج منيع وأفق تفكير محدود.

وبفعل تراكم التفاسير التي استندت إلى آليات قوية مثل التكرار، والسكوت والتوفيق انتهى الأمر بالمفسر من أي مذهب كان وضعية كبلته عن الإقدام على التجديد وغير قادر على الاجتهاد؛ لأن جل الاجتهادات السابقة تحولت شيئا فشيئا إلى مسلمات قطعية يتعامل معها المفسر بثقة قريبة من النص القرآني إن لم تكن مساوية له[19].

18. جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن 2/ 160 دار فرهمان استانبول ط الرابعة: 1978م

19. هكذا تعامل الفقهاء والمفسرون مع ما أقروه الأئمة الأربعة من اجتهاداتهم، مثل الارتقاء بمنزلة السنة في الحجية إلى منزلة القرآن. وإعلاء حجية خبر الآحاد إلى مستوى حجية الخبر المتواتر. ولم يخالف هذا الرأي إلا القليل مثل الإمام محمد عبده من المفسرين الذين لم يعملوا بذلك في تفاسيرهم.

وهكذا اندرج تفسير القرآن مثله مثل سائر العلوم الإسلامية - كالفقه وأصوله وعلوم الحديث- ضمن دائرة التقليد بفعل ما يسمى إغلاق باب الاجتهاد، وأصبحت التفاسير ومختصراتها، وحواشيها، وهوامشها تمثل حاجز يحجب عن المسلمين عموما والمفسرين على وجه الخصوص- النص القرآني ويمنع من تدبره وقراءته بعفوية وبراءة.

ولما فعلت صدمة الحداثة في العقول والضمائر فعلها، حتى وجد المفسر نفسه إزاء مسئولية جسيمة وإرث ثقافي ثقيل لابد من قراءته ونقده وغربلته، ومعارف جديدة، وافدة لابد من دراستها وفهمها والاستفادة منها لتقديم أجوبة مقنعة عن أسئلة ملحة هي من صميم الحاضر، وبين هذا وذاك كتاب الله يتصدر الدائرة المركزية في الثقافة الإسلامية ويسكن هواجس ضمير الأمة المسلمة.

المبحث الثاني:

التفاسير المعاصرة وموقفها من الاجتهاد والتجديد

بين هذا الكم الهائل من التفاسير القديمة والمعاصرة تبرز لنا إشكالية كبرى هذه الإشكالية هي: كيف سيتعامل المفسرون في العصر الحديث مع هذا الوضع الشائك هل سينسفون التراث الموروث من التفسير ويتجاوزونه بتوخي مناهج جديدة في استقراء التفاسير والمفسرون؟ أو سيعيدون إنتاج القديم في ثوب جديد؟ وإذا لم يكن هذا ولا ذاك، هل سيكتفون بنقد محتشم للتفاسير القديمة مع الاستضاءة ببعض أنوار المعارف الحديثة؟.

هذا ما يتعين علينا الإجابة عليه في هذا المبحث من خلال بعض النماذج الممثلة لخطاب التفسير في العصر الحديث. وإذا نظرنا إلى التفسير بين ماضيه وحاضره، نجد أن الأوائل لم يتركوا للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله ومحاولة الكشف عن معانية ومراميه، حيث تناولوه من أول نزوله بدراساتهم التفسيرية والتحليلية دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ وتلوّن بألوان مختلفة.

والذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها لا يداخله شك في أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفّاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق، فالناحية اللغوية والناحية البلاغية والناحية الأدبية والناحية

النحوية، ومثلها النواحي الفقهية والمذهبية والكونية الفلسفية، كلها وغيرها تناولها المفسرون الأُول بتوسع ظاهر ملموس لم يتركوا لمن جاء بعدهم- إلى ما قبل عصرنا بقليل – من عمل جديد أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها إلا ما كان عملا ضئيلا لا يتعدى جمع أقوال المتقدمين، أو شرح غامضها، أو نقد ما يعتريها من الضعف. أو ترجيح رأي على رأي. مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود خالية من التجديد والابتكار[20].

ولقد ظل الأمر على هذا الوضع، وبقي التفسير واقفا عند هذه المرحلة، لا يتعداها، ولا يحاول التخلص منها حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة بمشاغله الكثيرة على المستويين الاجتماعي والثقافي، واهتم مفكروه بقضايا المرأة والتعليم ومسألة العمل وظاهرة الرق. وهي مشاغل نبه الاتصال بأوربا إلى أهميتها في حياة المجتمعات الإسلامية ووقتها، لا من حيث ما اشتملت عليه كل قضية من قيم ومضامين عامة، وإنما من حيث الوعي بنظرة جديدة ترسم آفاق مجتمع مختلف عن المجتمع التقليدي، ولو لم تكن هذه النظرة إلى القضايا التي ذكرناها عميقة في تغيير فهم القيم السائدة لما كان ليهتم بها علماء التفسير فيجتهدوا في البحث عن أجوبة للتساؤلات الكثيرة التي أصبحت تضايق الضمير الإسلامي وتحرجه، وسبب المضايقة والإخراج وعي الضمير الإسلامي، بأن المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن تبقى بمعزل عن الظواهر الجديدة التي سادت البلدان الأوروبية؛ بل إن تلك الظواهر يمكن أن تمثل بوجه من الوجوه أفق تطوّرها، وأنه لا مناص من الاجتهاد لتحقيق الملائمة الصادقة بين مقاصد الشريعة الإسلامية ومقتضيات العصر الحديث.

في هذا الإطار الحضاري ينبغي تنزيل تفسير القرآن على قضايا العصر الحديث، وهذا يعني الإقرار مبدئيا بأمرين هامين:

أولاهما: أن التفاسير التي ألفت منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي تندرج في حركة إصلاحية عامة، أو هكذا تريد أن تكون على الأقل.

ثانيهما: أن التفاسير الحديثة والمعاصرة تختلف بشكل أو بآخر عن التفاسير القديمة، ولو من وجهة نظر مؤلفيها.

20. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون 161/2 دار إحياء التراث العربي ط الثانية.

وإذا كان الإقرار بالمبدأ الأول لا يثير جدلا كبيراً، فإن الإقرار بالثاني يحتاج إلى توضيح اعتباراً لما يحققه من إشكاليات سنحاول تفكيك بعض جوانبها بما يساعد على استنطاق النص القرآني والكشف عن خلفياته وفهم مقاصده.

ولئن سعى أكثر المفسرين التقليديين من حيث أشكال وتنوع مصنفاتهم ووفرتها، ومن حيث تبسيط عباراتها، مبينين- صراحة – في مقدمات تفسيرهم[21]، فإن ما يثير الانتباه هو تجاهل المفسر اللاحق لإنجاز المفسر السابق؛ بحيث أصبحت كثير من التفاسير نسخاً شبه مطابقة لبعضها البعض تحت عناوين مختلفة، ويكاد مبرر التبسيط يتحول إلى تعلة لإصدار تفسير جديد، فتفشت بذلك ظاهرة التراكم وقلت الإضافة، وأصبحت الغاية أقرب إلى المنفعة الفردية المعنوية منها والمادية منها إلى المنفعة العامة. ويكفي للاقتناع بذلك أن نمعن النظر في كثير من مقدمات التفاسير الحديثة لنجد قاسماً مشتركاً بينها يتمثل في حرص المفسرين على الإعلان عن استفادتهم من التفاسير القديمة المشهورة، وحرصهم أكثر على طمأنة القارئ بأنهم أقل شأنا من أن يتطاولوا على أصحابها، أو يقللوا من جهدهم، أو يهدموا ما بنوه، أو يخرجوا كليا عن المسلك الذي سطره الأقدمون[22] والمتمعن في متون التفاسير المعاصرة يلاحظ أن أصحابها قد وفوّا بعهدهم الذي قطعوه للقارئ بالوفاء للتفاسير التقليدية فلا تخلو صفحة من الإحالة إليها كتفسير الطبري والقرطبي والفخر الرازي حال كونها ناطقة بوظيفتها الإقناعية في إثبات معنى، أو إزاحة تأويل؛ بالإضافة إلى كونها ميثاق شرف يعطي القارئ شعوراً بالسلامة، ويضاعف من حماية المفسر من كل مطعن ممكن.

أما تبعية المفسرين المحدثين للقدامى فهي تبعية لا تحتاج إلى كثير من الأدلة لأنها – في رأينا – بارزة جداً، ولكن حسبنا أن نقف على مثال واحد فيه من الوضوح ما يغني عن المزيد.

---

21. أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي: 4/1. دار إحياء التراث العربي بيروت ط الثالثة 1974م

22. محمد محمود حجازي: التفسير الواضح 6/1. مطبعة الاستقلال الكبرى ط السادسة 1969م، محمد على الصابوني: صفوة التفاسير: 20/1 دار القلم بيروت ط الخامسة 1399هـ وهبة الزحيلي: التفسير المنير: 5/1 دار الفكر المعاصر بيروت ط الأولى 1991م.

فماذا قال الإمام محمد عبده[23] والطاهر بن عاشور[24] ومحمد علي الصابوني[25] ووهبة الزحيلي[26] في فهم للآية 34 من سورة النساء (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) (النساء: من الآية34)

ماذا أضافوا إلى ما قاله البيضاوي[27] في شأن القوامة والتفضيل ودواعي الضرب وكيفيته ومشروعيته؟

إن ما يستدعي الانتباه كثيراً – فضلا عن اجترار المفسرين المحدثين لأفكار الأقدمين في هذا المثال بالذات – هو أن جل التفاسير المعاصرة تكرر بعضها البعض الآخر، فلا فرق بين ما ورد في المنار في تفسير الآية الكريمة ذاتها منذ قرن تقريباً وبين ما أثبته الزحيلي في تفسيره اليوم. وكأن القرآن أمرهم بهذا الفهم في نص ملزم دون الاقتراب من مستجدات العصر وثقافته ومشكلاته.

والغريب أيضا أن أكثر أصحاب التفاسير الحديثة مازالوا محافظين على مسلمة متقدمة تقيس علاقة الرجل بالمرأة على علاقة السيد بعبده، ولم يمعنوا النظر في الآية الكريمة، وفي المتغيرات التي طرأت على الواقع، فلو نظرنا إلى منطوق الآية الكريمة التي أعطت القوامة للرجل على المرأة واستنبطنا العلل التي أعطت القوامة للرجل على المرأة لتوصلنا إلى أحكام تختلف كثيرا عما كانت عليه في العصور المتقدمة، ولكي نسلط الأضواء على الآية لابد لنا من إثباتها، قال تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا) "النساء: 34).

ولو توقفنا قليلا عند قوله " وَبِمَا أَنْفَقُوا " لوجدنا أن الإنفاق جزء من علة القوامة لأن المرأة قديما كانت مستهلكة ولم تكن منتجة، أما وقد أصبحت المرأة تشارك الرجل في الإنفاق على الأسرة، والرجل يطالب المرأة أن تشارك في الأنفاق وانقلب الأمر رأساً على عقب فإنه يتحتم على المفسرين أن ينظروا إلى

23. تفسير المنار 5/ 67-76.

24. التحرير والتنوير 3/38-44 سورة النساء.

25. صفوة التفاسير 1/274.

26. التفسير المنير 5/56.

27. ناصر الدين البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 1/213 دار الكتب العلمية ط الأولى بيروت 1988م

المسألة بجدية بحيث يتم التأصيل لكل ما استجد ويستنبطوا لها الأحكام التي تتلاءم مع العصر. لأن الأحوال تغيرت والأزمنة تبدلت على مدى قرون.

وليس ما سقناه من مثال استثناء كما قد يتبادر إلى الأذهان وإنما الظاهرة عامة سواء تعلق الأمر بالاقتصاد، أو بما استجد من قضايا ومعاملات تجارية وغيرها، الأمر الذي جعل الطاهر ابن عاشور لم يجانب الصواب في حكمه على التفسير السائد في عصره حين وصفه بأنه عالة على كلام سابق، لاحظّ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار أو تطويل[28].

إن إعادة خطاب المفسرين القدامى سيما في طرحه لأمهات القضايا المتعلقة بتنظيم الحياة الاجتماعية ليس دليلا فقط – على هيمنة الثقافة النقلية على الثقافة العقلية النقدية في التفسير الحديث إنما هو دليل أيضاً على تاريخيته.

ومن مظاهر التقليد في التفسير الالتجاء إلى الآثار وأسباب النزول ونقلهم لها عن المفسرين القدامى دون نقد جاد لما ورد فيها سنداً ومتنا، مع التغافل عن خلفياتها فضلا عن عدم انسجامها أحيانا مع السياق، وإنما يعيدون كتابتها بتناقضها واختلافاتها.

وإذا كان من الأهمية بمكان الإقرار بأهمية استحضار أسباب النزول بما يساعد على الإلمام بالسياق، فإن جل المفسرين المحدثين نقل تلك الأسباب والآثار عن المفسرين القدامى دون نقد جاد لما ورد فيها سنداً ومتنا، وإنما اكتفوا بنقلها على علاتها.

هكذا يبدوا أن تعويل جل المفسرين المحدثين على التفاسير القديمة بتكرار مضامينها والنسج على منوالها، واستحضارهم إشكاليات ليست من مشاغل القارئ المعاصر، وخاضوا فيها انطلاقاً من مسلمات معرفية كلاسيكية يفرض علينا القول والإقرار بأن تفسير القرآن في العصر الحديث لم يندرج بعد في فضاء التحديث والتجديد، وإن كانت معطيات التحديث المادي والتقدم العلمي والتقني، والثورات المعرفية قد فرضت على أصحابه أسئلة ملحة دفعت بعضهم إلى

28. التحرير والتنوير 7/1(م.ن)

مراجعة بعض ما كان يظنها من الثوابت والمسلمات، أو استحداث طريقة غير معهودة في استنطاق النص القرآني مما يمكن إدراجه في خانة مظاهر التجديد.

ومهما اختلف الدارسون في حجم الإضافة التي قدمها تفسير المنار[29]، فإنه من العسير التنكر للإمام محمد عبده ومحمد رشيد رضا؛ بل إنهما يعتبران رائدي التجديد في التفسير في العصر الحديث وقد حظي تفسير المنار باهتمام منقطع النظير من قبل أهل الاختصاص، ويتجلى ذلك في مستويين اثنين على الأقل:

أولاهما: نسج الكثير من التفاسير اللاحقة على منواله، واستفادة جل المفسرين منه، سواء صرحوا بذلك أم سكتوا[30].

وثانيهما: تحوله إلى مجال بحث في كثير من الدراسات الأكاديمية[31].

ويتميز تفسير المنار عن التفاسير التي سبقته بتغيير زاوية النظر إلى القرآن الكريم. يقول صاحباه:" والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة إلى تحصيله"[32] وفعلا فإن مركز الاهتمام في تفسير المنار لم يعد إبراز وجوه البلاغة، ولا تحليل ما تضمنه القرآن من إشارات علمية، أو تفصيل ما ورد فيه من أخبار تاريخية، أو معجزات نبوية، أو تفاصيل غيبية، إلى غير ذلك مما أطال فيه المفسرون القدامى؛ بل الذهاب إلى فهم المراد من القول وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله تعالى: " هدى ورحمة "و نحوهما من الأوصاف.

ولاشك أن هذا التغيير في زاوية النظر إلى القرآن مرتبط عضويا بهاجس الإصلاح لدى الشيخين محمد عبده ورشيد رضا، إصلاحاً يوظف التفسير لمعالجة الواقع، وتغيير ما ترسخ في عقول الناس من أفكار ساقت المسلمين إلى التخلف،

29. عبد المجيد الشرفي: الإسلام والحداثة: ص 65-69. الدار التونسية للنشر 1990م

30. يكفي أن نذكر في هذا الصدد تفسير المراغي فإنه كاد أن يكون نسخة مكررة لتفسير المنار.

31. عبد الله شحاته: منهج التجديد في تفسير القرآن الكريم جامعة القاهرة 1984م.

32. تفسير المنار: 25/1.

عساهما يساعدانهم على الرقي والتمدن والخروج من أسر التخلف، وبهذا المعنى يمكن القول أن التفسير عندهما وسيلة لا غاية.

ورغم ذلك نجد المفسرين اليوم من يعود إلى كتابة خطاب التفسير القديم على علاته محاولاً إخراجه في ثوب جديد، دون اعتبار لما جاهد الإمام محمد عبده في ترسيخه من اجتهاد وإعمال للرأي؛ بل يوجد من ينبري أحيانا للرد على مقولاته صراحة أو ضمناً[33].

ويتضح للدارس أن الاندفاع نحو التجديد في المنهج والمضمون يعود إلى بداية القرن العشرين، بدء في شكل دروس تفسيرية ألقاها الإمام محمد عبده في الأزهر الشريف سنة 1899م إلى سنة 1905م- فسر فيها سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء حتى آية 125 ونشرها تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا تباعاً في مجلة المنار ما قيده عن أستاذه، مقدما له بعبارة: " قال الأستاذ الإمام " ومضيفاً إلى عبارة: " أقول " ما سنح له من تعليقات، ثم واصل بمفرده التفسير حتى الآية 107 من سورة يوسف. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه " " ماذا عن حظ التفاسير اللاحقة من التجديد؟؛ لأن فهمنا للتجديد بمعناه الواسع في التفاسير الحديثة يسمح لنا التميز بين اتجاهين كبيرين يسمى الأول منهما بالتفسير العلمي الذي يرمي إلى جعل القرآن الكريم كتاب يشتمل على سائر العلوم، ما جد منها ومل لم يجد، وقد استشرى أمره واستفاض في عصرنا، وراج لدى المثقفين الذين لهم عناية بالقرآن وبالعلوم العصرية – التجريبية – وبرز من أثر هذه النزعة التفسيرية العلمية أن أخرج لنا المشغوفون كثيراً من الكتب التي حاول فيها أصحابها أن يحملوا القرآن كل علوم الأرض والسماء بتفصيلاتها، وأن يجعلوه دالا عليها تصريحاً أو تلميحاً اعتقاداً منهم أن في ذلك بيانا لناحية من أهم نواحي صدق القرآن وإعجازه وصلاحياته للبقاء، ولعل أكثرهم إنتاجاً لهذا النوع من التفسير الشيخ طنطاوي جوهري(ت1940 م) في كتابه "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" وسار على منهجه عدد كبير من المفسرين والدارسين للقرآن منهم محمد بن أحمد الإسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري في كتابه " كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية" ومنهم أيضاً عبد الله باشا

33. محمد علي الصابوني في صفوة التفاسير. وسيد قطب في ظلال القرآن في تفسير سورة الفيل.

فكري في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية، وقد طبعت بالقاهرة سنة 1315هـ ومحمد توفيق صدقي وعبد الحميد بن باديس، وعبد الرزاق نوفل، ومصطفى محمود[34]

وعلى نفس المنوال سار الشيخ عبد المجيد الزنداني في دروسه ومحاضراته.

أما الاتجاه الثاني: فهو ما اصطلح على تسميته بالتفسير الموضوعي، وهو دراسة القرآن بحسب موضوعاته. وهو جمع الآيات الخاصة بالموضوع الواحد من القرآن جمعاً إحصائيا مستفيضاً إما بحسب ترتيب النزول أو بحسب ترتيب المصحف ثم ينظر فيها المفسر مجتمعة ليصل إلى كلمة القرآن في ذلك الموضوع، ولعل هذا التفسير يكون إلى المعنى أوثق في تجديده[35].

وفي هذا المنهج كشف للصور المتعددة من الموضوع الذي يعرضه القرآن الكريم في أكثر من موضع، كالحديث عن موسى وبني إسرائيل مثلا. إذ يقوم المفسر التقليدي بالحديث عنها في جزء من التفسير، حسب ما ورد في الآية، ثم يعود إليه مرة أخرى في موضع آخر، بينما المفسر الموضوعي يسلك منهجا مغايراً لمنهج التفسير التحليلي، فيقوم بإحصاء الآيات وترتيبها إما بحسب ترتيب النزول وإما بحسب ترتيب المصحف، ويكشف بذلك عن أسرارها واستنطاقها واستنباط حقائق الأشياء بصورة مختلفة عن الصورة التي كشفها حسب ترتيب المصحف وهنا يظهر العمق البلاغي للقرآن الكريم أكثر وأكثر، بحيث يكون الإلمام بالموضوع من جميع أطرافه، والإحاطة به من جميع جهاته، و يصبح التفسير جامعا مانعا[36]. فهو منهج يقوم في جملته على وضع المفردة القرآنية في سياقها لا من السورة فحسب؛ وإنما في كامل السياق القرآني مما يساعد على فهمها ضمن حقل دلالي معين، وقد أرسى قواعد هذا المنهج الشيخ أمين الخولي[37] وطبقته عائشة بنت الشاطئ[38] وشوقي ضيف[39] وغيرهما واستفاد من بعض إيجابياته دارسون آخرون بدرجات متفاوتة.

34. انظر التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظرية والتطبيق لهند شلبي. مطبعة تونس قرطاج الأولى ط 1985م محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون: 2/497-518

35. أمين الخولي: دائرة المعارف الإسلامية مادة تفسير 5/368

36. محمد حسين علي الصغير: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم المؤسسة الجامعة.

37. أمين الخولي: التفسير- نشأته – تدرجه – تطوره. دار الكتب اللبناني بيروت ط الأولى 1982م

38. عائشة بنت الشاطئ التفسير البياني للقرآن. دار المعارف مصر 1986م

ولذلك نقول: إن خطاب التفسير في العصر الحديث لا يخلو من محاولات جادة في اتجاه التجديد، ويبقى تفسير المنار أكثرها توجها نحو التجديد بما توفر لديه من جرأة على الاجتهاد وإعمال الرأي، وفيما يمكن اعتباره تمرد على النموذج التفسيري القديم.

إن التجديد في التفسير القرآن الكريم في هذا العصر يعتبر مطلب ملح لاستيعاب كل جديد من المتغيرات المتجددة واللامتناهية ولكن في إطار مقاصدي منضبط بعيداً عن الأهواء والمزايدات، وبعيداً عن التقليد الأعمى لكل ما يفد إلينا من هنا أو هناك، ونخص بالذكر بعض المحاولات المتجهة نحو التجديد الجذري في تفسير القرآن- كما يسميها أصحابها – والتي لا تتجاوز نوعيا كل المحاولات والتي رغم قلتها وتحركها في دائرة ضيقة، لم تتجاوز بعد إطار البحث الأكاديمي، فهي تفتح آفاقاً غير معهودة في استنطاق النص القرآني مثل رسالة" الفن القصصي في القرآن الكريم" التي أشاد بها بعض المتحمسين إلى التجديد واعتبروها استثناء واعداً. والحقيقة أن القراءة التي قدمها صاحب الرسالة للقصص القرآني ليست سوى تعميق لفكرة طرحها الإمام محمد عبده في تفسير المنار، وهذا بالطبع لا ينقص من قيمة المجهود الذي بذله صاحب الرسالة في البرهنة على الأطروحة، ولا من الجرأة النادرة التي تحلى بها لمواجهة المحافظين، ولاختراق نسيج ثقافي متكامل قائم على حصانة دينية قوية؛ لكن ما ينبغي الإشارة إليه أن هذا التفسير للقصص القرآني لم يخرج عن البنية السجالية المشتركة بين التفاسير السابقة، حيث يقول الكاتب في خاتمة بحثه مردداً ما ذكره في مقدمة بحثه " أما الرد على الملاحدة والزنادقة والمستشرقين والمبشرين فيقوم على أساس أن القرآن الكريم كان يقيم بناء على ما يعتقده المخاطب وعلى ما تصوّره الجماعة من مسائل التاريخ وليس ذلك إلا لأنه يريد الهداية والإرشاد، ويقصد إلى العظة والعبرة، ولا يقصد إلى تعليم التاريخ أو نشر وثائقه بحال من الأحوال[40].

إن الخطوات المتقدمة في تفسير القرآن نحو التجديد تتطلب من المفسر سعة الأفق والمعرفة التاريخية العميقة بأحوال البشر والاطلاع الجيد على تفاسير

39. شوقي ضيف: تفسير سورة الرحمن وسور قصار. دار المعارف مصر 1980م

40. محمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم ص 8 مكتبة الإنجلو المصرية ط: الرابعة 1972م

القدامى من شأنها أن تخطو بالتفسير نحو التجديد مراحل متقدمة دون الخروج عن الدائرة الإيمانية بحيث يقف مع النص القرآني ويقرؤه قراءة مقاصدية معتقداً صلاحية القرآن لكل زمان ومكان. وهذه القراءة تمنعه عن الشطط أو الزلل.

إن إمكانيات التجديد في التفسير متوفرة من خلال دراسة القرآن على ضوء مستجدات العصر وثقافته فلكل عصر مشكلاته وقضاياه، وليس على مفكري الإسلام الإخلاص النية في أعمال النظر في القرآن الكريم مع مزيد من الانفتاح على علوم العصر دون خوف مفرط على الإسلام والمسلمين؛ لأن الله قد تكفل بحفظه. وما ينفع الناس يمكث في الأرض لا محالة.. ودون حكم مسبق على النوايا وإلصاق التهم الخطيرة للمخالفين لسنن التفاسير التقليدية السائدة.

كما أن التفسير الموضوعي سيفتح لنا أفاقا رحبة إن نحن طرقنا بابه بجد فهو المنطلق لجميع قضايانا المعاصرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية.

وما علينا إلا أن نطرق الأبواب ونستفيد من المحاولات السابقة من خلال استقراء التفاسير ومقدماتها ومن الدراسات الواعدة حول إشكاليات التفسير.

وختاماً نقول: إنه لا يمكن للمفسر اليوم أن يرقى إلى درجة الاجتهاد الفعلي إلا إذا تشبع بالروح العلمية السائدة في سائر الدراسات المعاصرة الجادة. وتوفر لديه اطلاع واسع على أسس ومناهج العلوم الحديثة، لأن القارئ أصبح يعيش وضعا تأويليا جديداً يختلف اختلافا جذريا عن الوضع الذي عاشه السلف، وبذلك يكون الخطاب التفسيري مستقبلاً رهين إرادة المفسر خوض مغامرة الانخراط في فضاء التجديد بما في معنى المغامرة من مخاطر ومتعة.

وحقيقة التجديد تعني تغيير الصورة التي ألفها المسلمون وغيرهم عن دينهم، وتطهيره من أدناس وقيم أنظمة أخرى علقت به وتحكمت في المسلمين طويلا، والعودة بهم سريعاً إلى خط الإسلام الواضح ونظامه المقرر في نظرته إلى الحياة الإنسانية، وتصوره المعين للإنسان والكون الذي يعيش فيه[41].

41. أبو الأعلى المودودي: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه: ص 16-17 ط: الثالثة دار الفكر – لبنان 1968م

إن التجديد ليس إعادة قديم كان، وإنما هو اهتداء إلى جديد يكون بعد إن لم يكن، سواء أكان هذا الاهتداء إلى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجوداً أم بطريق الاجتهاد في استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن[42].

والتجديد الذي ننشده وندعو إليه: هو استلهام آيات القرآن الكريم طالبين منه التوجيه والهداية في كل ما يعترض حياتنا مما يمس العقيدة، أو الأخلاق، أو يدخل في بناء مجتمعنا وسياستنا واقتصادنا.... بما يكشف عن وفاء القرآن الكريم بحاجة البشرية وفاء لا يعوزها إلى غيره من طرائق الهدايات، على أن يكون رائدنا في استلهام النص ألا نفرض عليه ثقافتنا وعلومنا، أو نخلع عليه من فلسفاتنا وآرائنا؛ بل أن نأخذ من النص ما يعطيه لنا من قيم، أو يدل عليه من آراء ومعتقدات، أو يوحي به من أفكار علمية أو اجتماعية، حتى ولو لم تتفق مع ما نعلمه من دون ذلك، وهذا واجب دارسي القرآن الملح الذي يبين موقف القرآن من الآراء والأفكار والمذاهب الجديدة، ويعطي كلمته الفصل في آثاره الخطيرة على أفكار الناشئة من الأمة وعقائدهم وسلوكهم وسائر شئون حياتهم.

إن التجديد التفسيري بالمعنى الذي حددناه يعد في حقيقته تجديداً في نظرنا إلى القرآن، وليس معناه أن نصوص القرآن قد تطورت وتغيرت مدلولاتها، وإنما الذي تغير وتطور هو عقل الإنسان الذي يتسع إذا استنار، وفكره الذي ينضج إذا استقام.

كما أن التجديد التفسيري لا يعني إخضاع الآيات القرآنية كما يحلو لهواة الظهور – لهذا التطور في الأفكار والآراء والمذاهب الجديدة، أو أن نجعل القرآن لقمة سائغة لكل ذي جاه أو سلطان متخذين من التأويل وسيلة إلى الاستجابة لكل هوى. إن ذلك هو التطاول على القرآن، والانحراف به ممن أصابتهم لوثة الظهور بمظهر المجددين، أو المتحررين، وهم في الحقيقة متحللون، ولهم من القدرة والجرأة معا على تأويل آيات القرآن الكريم ما يساعدهم على تلبية كل الحاجات والتمشي مع كل الظروف، ولا مانع عندهم من أن تساير الآيات القرآنية اليوم وضعاً من الأوضاع تنقضه في الغد القريب أو البعيد[43].

42. أمين الخولي: المجددون في الإسلام 131 ط: دار المعرفة بالقاهرة 1965م

43. محمد عبد الله السمان: نحن والقرآن ص66 طبع القاهرة 1964م

المراجع:

1. القران الكريم.
2. ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير مطبعة الترقي بدمشق.
3. ابن خلدون: المقدمة.
4. أبو الأعلى المودودي: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ط: الثالثة دار الفكر – لبنان 1968م.
5. أحمد أمين: فجر الإسلام مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: 1935 ومنهج الفرقان لمحمد أبو سلامة: مطبعة شبرا 1938م.
6. أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي دار إحياء التراث العربي بيروت ط الثالثة 1974م.
7. أمين الخولي: دائرة المعارف الإسلامية مادة تفسير.
8. أمين الخولي: التفسير- نشأته – تدرجه – تطوره. دار الكتب اللبناني بيروت ط الأولى 1982م.
9. أمين الخولي: المجددون في الإسلام 131 ط: دار المعرفة بالقاهرة 1965م
10. البخاري باب التفسير من فتح الباري ابن حجر العسقلاني فتح الباري:ط الخيرية:1319هـ.
11. الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير.
12. حسن مزيو إشكالية تاريخية التفسير ومتطلبات الحداثة الحضارة والتحديث في الحضارة الإسلامية: أعمال الندوات العلمية التي التأمت بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية بتونس العام الجامعي 2003- 2004م.
13. جلال الدين السيوطي: الإتقان مطبعة مصطفى الحلبي 1935م.
14. جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن دار فرهمان استانبول ط الرابعة: 1978م.
15. سيد قطب: في ظلال القرآن تفسير سورة الفيل.
16. شوقي ضيف: تفسير سورة الرحمن وسور قصار. دار المعارف مصر 1980م.
17. عائشة بنت الشاطئ التفسير البياني للقرآن. دار المعارف مصر 1986م.
18. عبد المجيد الشرفي: الإسلام والحداثة: الدار التونسية للنشر 1990م.
19. عبد الله شحاته: منهج التجديد في تفسير القرآن الكريم جامعة القاهرة 1984م.
20. على حسن عبد القادر: نظرة عامة في تاريخ التشريع 1942 ولم تذكر دار النشر والطبعة.
21. محمد حسين علي الصغير: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم المؤسسة الجامعة.
22. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون دار إحياء التراث العربي ط الثانية.
23. محمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم مكتبة الانجلو المصرية ط: الرابعة 1972م.
24. محمد رشيد رضاء: تفسير المنار.
25. محمد عبد الله السمان: نحن والقرآن طبع القاهرة 1964م.
26. محمد على الصابوني: صفوة التفاسير دار القلم بيروت ط الخامسة 1399هـ.
27. محمد محمود حجازي: التفسير الواضح مطبعة الاستقلال الكبرى ط السادسة 1969م
28. ناصر الدين البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل دار الكتب العلمية ط الأولى بيروت 1988م.
29. هند شلبي التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظرية والتطبيق. مطبعة تونس قرطاج الأولى ط 1985م.
30. وهبة الزحيلي: التفسير المنير دار الفكر المعاصر بيروت ط الأولى 1991م.
31. التراث والتحديث في الحضارة الإسلامية اليوم: أعمال الندوات التي التأمت بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية بتونس السنة الجامعية 2003- 2004م.